محاضرات في النص الأدبي القديم" نثر"

المستوى:سنة أولى ليسانس "المجموعة الثانية"

الأستاذة: وهيبة لماني

المحاضرة الثانية : الخطابة

تعد الخطابة فن من الفنون النثرية التي انتشرت بكثرة في العصور المتقدمة ، فقد كان لها حضور واضح في المرويات النثرية التي وصلتنا ، والخطابة في اللغة مشتقة من الخطب (خ ط ب) تدل على معان كثيرة في المعجمات العربية .

فقد قال ابن منظور: قيل : " سبب الأمر، يقال : ما خطبك؟ أي ما أمرك؟

وتقول : هذا خطب جليل ، وخطّب بِسيرْ : وهي من الخِطاب والمخاطبة ، وتعني : مراجعة الكلام ، والخطبة تأتي من الفعل خطب ، يخْطبُ ، وخطيب الخاطب على المنبر ، واختطب خطابة ، واسم الكلام الخطبة ، وبذلك فهي " الكلام المنثور المسجوع وهو مثل الرسالة التي لها أول وآخر"

ويقول الفيروز أبادي في المحيط : " الخطابة " : الكلام المنثور المسجّع ونحوه ، رجل خطيب : حسن الخطبة

أما الخطابة في الاصطلاح ، فقد حملت تعريفات كثيرة من طرف الفلاسفة واللغويين قديما وحديثا منهم:

-أفلاطون: فن القول ، يجعل من يملكون ناصيته بارعين في الكلام ومادام الكلام تعبيرا عن الفكر فإنه يجعلهم أذكياء في شيء ما.

-الفارابي : دليل العلم أذان الإقناع يقع فيهما ، وهي بذلك تعتمد الأسلوب العلمي

-أحمد محمد الحوفي : " فن الكلام الجيد المنتظم في الخطابة ، وذلك لأن الخطيب ينتقي الكلام بعناية في خطابه

يبدو من التعريفات السابقة أن الخطابة فن نثري قولي ، غايته الإقناع والتأثير في جمهور متلقيه، ولا تكتمل الخطابة إلا بعناصر ثلاث ، الخطيب أو المرسل ، و" الخطبة " و" المتلقي أو المستمع ، ولكل عنصر من هذه العناصر ميزات وصفات تميزه عن الآخر نستشفها من خلال التطرق إلى خصائص الخطابة وتطورها في مختلف العصور.

١- الخطابة في العصر الجاهلي

وقد عرف العرب الخطابة منذ القديم، فعرب الجاهلية استخدموها في منافراتهم ومفاخراتهم بالأحساب والأنساب والمآثر والمناقب ...إلخ.

وذاع صيت العديد من خطبائهم مثل " عامر بن الظرب " وربيعة بن حذار ، و "أكتم بن صيفي"

و"" قس بن ساعدة " ووصلت أهمية الخطابة عندهم وعلو شأنها أن كانت منزلة الخطيب عندهم فوق منزلة الشاعر ، يقول أبو عمرو بن العلاء : " كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيم عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ، ويهوّل على عدوهم ومن غزاهم ويهيب من فرسانهم ويخوّف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السّوقة وسرّعوا إلى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر"

وتعكس نصوص الخطب التي وصلت من العصر الجاهلي قوة البديهة والارتجال ، وحس البيان والبلاغة ، وهي في جملتها خلاصة تجارب الإنسان ونظراته في الحياة ، فهي تخلو من المعاني الفلسفية العميقة.

ومن أمثلة الخطب الجاهلية: خطبة قسّ بن ساعدة التي رواها الرسول صلى الله عليه وسلم :" أيها الناس اجتمعوا واسمعوا من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ماهو آت آت ، أما بعد: فإنّ في السماء لخبرا ، وإنّ في الأرض لعبرا ، نجوم تمور ،وبحار تغور، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع ، أقسم قسّ بالله قسما ، لا حانثا فيه، ولا آثما، إنّ لله دينا هو أرضى من دين أنتم عليه.

ما لي أراهم يذهبون ولا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا فناموا ؟ سبيل مؤتلف وعمل مختلف..."

يمكن أن نستخلص من خلال هذه الخطبة بعض ميزات الخطب الجاهلية :

١/ الخطبة عبارة عن فقرات مرسلة قصيرة يقل الترابط بينهما

٢/ تميل إلى الإنجاز والحرص على السجع

٣/ الاستعانة بالمثل والظواهر الكونية وسؤال المصير

٤/ تحتوي الخطبة على إشارات تنبؤية ، وهي سمة تكاد تكون غالبة على الخطب الجاهلية

٢-الخطابة في العصر الإسلامي :

كان مجيء الإسلام أبرز الأحداث التي كان لها أثرها في تطور فن الخطابة ، فالخطابة هي خير ما يستعين به الدعاة والأنبياء والمصلحون في الدعوة إلى مذاهبهم وعقائدهم ، لكونها الوسيلة المثلى للاتصال بالجماعات والتأثير فيها واستمالتها فاتخذها لذلك الرسول عليه السلام أداة لنشر دعوته وإقناع المشركين بصدق رسالته ، ثم اتخذها بعد الهجرة أداة لإيضاح تعاليم الإسلام ووعظ المسلمين. ومنذ عهد الرسول ظهر لون من الخطابة تلقى على منابر المساجد أيام الجمع والعيدين بغية وعظ المسلمين وإرشادهم إلى ما فيه صلاحهم وما لبث هذا الضرب من الخطابة أن أصبحت له تقاليد وأصول خاصة به ودعا الرسول المسلمين إلى الجهاد لنشر الدعوة الإسلامية في الأمم المجاورة للعرب فوجد ضرب آخر من الخطابة الغاية منه الحثّ على الجهاد في سبيل الله.

وما لبثت خطبة الجهاد أن ازدهرت باتساع الفتوح الإسلامية ووجدت طبقة خاصة من الخطباء هي: طبقة القصاص تتولى الحث على الجهاد ،وتذكير المسلمين بما ينتظرهم من الثواب الكريم إذا أحسنوا البلاء في قتال المشركين.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه من بعده يبعثون العمال والولاة إلى الأمصار فإذا قدم الوالي مصره قام خطيبا في الناس وبين لهم خطته التي سيسير عليها، وقد أصبحت هذه الخطبة سنة للخلفاء والولاة يستهلون بها ولايتهم .

ونجمل أهم خصائص الخطابة الإسلامية في النقاط التالية :

*قلة الخطب التي قيلت في المنافرات والمفاخرات وسجع الكهان لاتصاله بالوثنية التي قضى عليها الإسلام ، وانتشرت بكثرة إلى جانب ذلك بعض الخطب كخطب الجهاد والحض على القتال والزواج والمحافل والوفود، الخطب الدينية ، المناظرات ، الخطب السياسية ، الوصايا.

* تتفاوت الخطب بين الإيجاز والإطناب

* طالت الجمل نوعا ما وزاد الارتباط بينها وهجر السجع المتكلف

* اتسعت معانيها وعمّقت بما استمدت من معاني القرآن والحديث

* أضفى القرآن والإسلام على الخطابة روحا إسلامية تباين الروح الجاهلية التي كانت تتسم بها قبل الإسلام.

٣-الخطابة في العصر الأموي :

يعد العصر الأموي من أزهى عصور الخطابة فقد كانت أداة لا يمكن الاستغناء عنها في ظل دولة شهدت من الأحداث والوقائع ما شهدته الدولة الأموية ، فيكفي القول أنّ الفتوحات الإسلامية وصلت آنذاك إلى حدود الهند والصين شرقا إلى جبال البرانس جنوب فرنسا ، ووصلت فتحها إلى بعض جزر البحر المتوسط ، وإلى جانب الحروب التي كانت تقودها في الخارج عاشت الدولة حروبا داخلية قوية ضد خصومها من الشيعة والخوارج والموالي...إلخ

ولعل أهم ما يميز الخطابة في العصر الأموي :

*أنها تأثرت بالظروف السياسية والاجتماعية والدينية التي مر بها العصر لا سيما قضية الإمامة .فالخطابة – آنذاك – أهم وسيلة يمكن من خلالها طرح الأفكار والمجاهرة بالمذهب السياسي والعقدي ، واستمالة الناس إليه، فازدهرت لذلك كله الخطابة السياسية والحربية والخطب

الدينية ، ومن الخطباء الذين ذاع صيتهم "معاوية بن أبي سفيان "، "زياد بن أبيه " ،"عبد الله بن مروان"، و "الحجاج بن يوسف "، " وقطري بن الفجاءة "...إلخ

*أثر القرآن الكريم في أسلوب الخطابة فتّم العودة إلى جزالة الجاهلية وصلابتها.

*توظيف العنصر الديني للدفاع عن المذهب السياسي والعقدي لا سيما لدى أصحاب المذاهب والفرق الكلامية

* ظهور المناظرات الخطابية ، المناظرات التي كانت تحدث بين الفرق الكلامية مثل الجبرية والقدرية والمرجئة حول عدة قضايا كالقدر ، وصفات الله...إلخ

٤- الخطابة في العصر العباسي:

ظلت الخطابة مزدهرة في بداية الدولة العباسية ، فقد كان للخطابة في صدر هذا العصر مكانة في النفوس وسلطان على القلوب لاعتماد القوم عليها في توطيد الملك ، وتحميس الجند واستقبال الوفود وكان للخلفاء الأولين ودعاتهم فيها الشأن الرفيع والشأو البعيد كالمنصور والمهدي والرشيد والمأمون ، وداود بن علي ، وخالد بن صفوان وشبيب بن شيبة

ويرى بعض النقاد أن الخطابة مع نهاية القرن الأول للحكم العباسي بدأت تشهد خفوتا وضعفا .نذكر من أسباب ذلك

* استقرار الحكم للعباسيين " كثيرا من المعارضين للخلافة تمّ القضاء عليهم في الدولة الأموية – كما ذكرنا سابقا- كالزبيريين ، والخوارج ...إلخ ،مع بقاء عنصر عنيد متمثل في الشيعة ".

* دخول الأعاجم ، لا سيما العنصر الفارسي واستحداث وسائل وآليات جديدة في تسيير أمور الدولة

* انتشار الكتابة لا سيما الرسائل

نختم في الأخير لنقول أن الأندلسيين قد عرفوا الخطابة على غرار المشارقة . إذا كانت تحركها الأسباب ذاتها التي أدت إلى ازدهارها في المشرق " الحروب ، النزاعات ،العصبيات ....." ، وتميزت بالإيجاز والبعد عن التكلف والميل إلى الوضوح .

من الخطباء : الوليد بن عبد الرحمن بن غانم ، عبد الله الفخّار القاضي، أبو الحسن منذر بن سعيد البلوطي.

المراجع المعتمدة:

البيان والتبيين ،الجاحظ

موسوعة السرد العربي ،عبد الله إبراهيم.

فن الخطابة ،أحمد محمد الحوفي .

أدب صدر الإسلام،محمد خضر.

تاريخ الأدب العربي ،أحمد حسن الزيات .

النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس ،علي بن محمد .